جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة –

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

السنة الجامعية 2023-2024

مقياس: المجتمع الجزائري وفعالياته **د/ فهيمة عمريوي**

السنة الثانية ماستر

المحاضرة السابعة **النمو الديمغرافي والأوضاع الصحية:**

تعتبر عملية تعداد السكان في الجزائر أثناء العهد العثماني من القضايا الصعبة لعدم توفر معطيات إحصائية دقيقة كما أن علم الإحصاء لم يكن متطورا في الفترة العثمانية سواء في الولايات أو في الدولة العثمانية فهذه الأخيرة عرفت أول إحصاء سنة 1826 ولم يكن هو الأخر دقيقا حيث شمل الذكور دون الإناث واقتصر على منطقة الأناضول دون غيرها.

كما أن الإحصائيات جول عدد السكان وردت أغلبها في المصادر الأجنبية والقليل منها في المصادر المحلية غير أن إحصائياتهم تعزوها الدقة لعدة أسباب أهمها إن أصحاب هذه الإحصاءات اكتفوا فقط بإحصاء السكان المقيمين بالمدن دون أن يأخذوا بعين الاعتبار سكان المناطق الريفية والصحراوية، وذلك لعدم وجود بيانات إحصائية يعتمدون عليها

تقديرات القرن السادس عشر

عرف عدد السكان في الجزائر خلال القرن السادس عشر تطورا ملحوظا ويرجع ذلك إلى الظرفية التاريخية المتمثلة في توافد عدد كبير من اليهود والأندلسيون والعثمانيون إضافة إلى الكراغلة الذين نتجوا فيما بعد عن طريق زواج الأتراك بنساء محليات، وأيضا تحسن الظروف الاقتصادية والاجتماعية في تلك الفترة، وازدياد نشاط البحرية مما أدى إلى تزايد عدد الأسرى واستمر عددهم في التزايد إلى غاية بداية القرن الثامن عشر. كما أن الاتصالات التجارية بين الجزائر والسودان الغربي كان لها أثر واضح في هذا الارتفاع. ففي مطلع القرن السادس عشر ضمت بجاية ونفس العدد في قسنطينة أما مدينة الجزائر فوجد بها أربعة ألاف بيت أما التمقروطي فتحدث عن مدينة الجزائر أنها

كانت عامرة بالسكان وتحدث عن بجاية بأنها صارت خراب. ويذكر هايدو أن مدينة الجزائر كان بها حوالي إثنا عشر ألف ومأتي منزل واستمرت المدينة في التوسع العمراني وازدياد عدد السكان إلى غاية النصف الأول من القرن 17. حيث بدأ النمو الديمغرافي في التراجع نتيجة توقف الهجرة الأندلسية وانتشار الأوبئة وكثرة الحملات الأجنبية.

أعداد السكان خلال القرن الثامن عشر: توفرت المعطيات بكثرة خلال القرن الثامن عشر عن النمو الديمغرافي ورغم توفر الإحصائيات إلا أنها اتسمت بعدم الدقة والتضارب والتناقض. ويمكن الرجوع لعدة مؤلفات لملاحظة هذا التضارب منها عمل فاليير ولوجي دي تاسي وبايسونال وفوتير دي بارادي وغيرهم.

ومع نهاية القرن الثامن عشر تناقص عدد السكان بشكل واضح إذ أن عددهم لم يتجاوز الخمسين ألف نسمة، والجدير الذكر أن هذا التناقص لم يؤثر على الجانب العمراني الذي كان قد تطور من القرن السادس عشر إلى غاية النصف الأول من القرن السابع عشر. فقد ذكر الباحث تال شوفال عدم وجود مساحات شاغرة داخل أسوار مدينة الجزائر خلال القرن الثامن عشر أدت إلى تهديم معالم دينية كانت موجودة من قبل، وبناء مساجد أخرى على أنقضاها كما قاموا بتوسيع المساجد المنشأة بشراء عقارات جديدة ملاصقة لإضافتها لمساحة المساجد.

تقديرات القرن التاسع عشر: تضاربت الآراء أيضا حول عدد السكان خلال القرن التاسع عشر إذ قدر تيدنا عددهم في بداية القرن بـ حوالي مليون نسمة أما هولن فقد ذكر وجود مليون ونصف مليون نسمة سنة 1802. ويبدو وجود مبالغة في العدد، وتظهر بشكل واضح في العدد الذي ذكره بوتان سنة 1808 والمقدر بـ ثلاث ملايين نسمة وبعد ثمان سنوات يذكر شالر أن عدد السكان المملكة لا يتجاوز مليون نسمة وبالنسبة للمصادر المحلية فنورد العدد الذي أورده حمدان بن عثمان خوجة والذي قدره بـ 10 ملايين وهو أيضا عدد مبالغ. فيه وعموما فإن عدد السكان لم يتجاوز 3 ملايين والجدير بالذكر أنه رغم توفر الوثائق العثمانية خلال القرن الثمن عشر والتاسع عشر إلا أن المعطيات حول عدد السكان تبقى ناقصة وتقدم هي الأخرى صورة جزئية.

أسباب تراجع النمو الديمغرافي في أواخر الفترة العثمانية:

من الظواهر البارزة التي تلفت انتباه الدارسين عند إقبالهم على دراسة الأوضاع الاجتماعية هي تناقص عدد السكان ابتداء من القرن الثامن عشر ويرجع ذلك لعدة عوامل موجزها فيما يلي:

الأوبئة: عرفت الجزائر والدول المتوسطية عموما انتشار الأوبئة والأمراض المعدية وكانت من أهم العوامل المساهمة في تناقص عدد السكان مثلما سنفصل فيه في العنصر الثاني.

الاضطرابات الداخلية: ساهمت الاضطرابات الداخلية التي نشئت خلال القرن التاسع عشر إلى تناقص في حركية عدد السكان كاضطراب 1805 التي قامت بين اليهود والإنكشارية، والتي أودت بحياة الدّاي مصطفى وغادرت على إثرها 100 أسرة يهودية إلى تونس و 200 أسرة أخرى إلى ليقورنه الإيطالية. والثورات التي عمت البايليك وراح ضحيتها عدد كبير من المدنيين والعسكريين.مثل ثورة ابن الأحرش في الشرق، وثورة الدرقاوي في الغرب.

– **انخفاض عدد المجندين**: عرف عدد المجندين بالمشرق تناقصا ملحوظا وبعد أن كان عددهم يصل في العهود الأولى إلى 22 ألف جندي، انخفض في أوائل القرن التاسع عشر إلى 4000 كان لهذا التناقض انعكاس مباشر على العدد الإجمالي لسكان الجزائر.

– **الحملات الأوروبية**: ساهمت الحملات التي شنتها الدول الأوروبية ضد الجزائر من حين لآخر في تناقص عدد سكان الإيالة، ونذكر من هذه الحملات الحملة الإنجليزية 1824 الهولندية (1816) التي راح ضحيتها عدد كبير من الأهالي، ولقد كان لتناقص السكان آثار سلبية على الأوضاع الاقتصادية حيث قلة اليد العاملة، وهو ما أثر سلبا على الإنتاج الزراعي والصناعي وغلاء أسعار السلع، وكان ذلك على حساب مستوي معيشة السكان.

الأوضاع الصحية

الأمراض

تعتبر الأوبئة والأمراض من الأسباب التي أدت لتأخر المجتمع وانعكس ذلك سلبا على مختلف الجوانب، وعموما فإن الأمراض لم تكن منتشرة بشكل كبير ونذكر منها مرض الرمد الذي كان يصيب الأطفال خاصة ومن الأمراض أيضا نجد مرض الزهري والالتهابات والنقرس والجدري. كما كان يتعرض سكان المناطق السهلية للحمى مثل سهل متيجة نظرا لكثرة المستنقعات خاصة في فصل الربيع.

أما طريقة العلاج فكانت تعتمد على الطرق التقليدية منها التداوي بالأعشاب والنباتات واستعمال القطران في علاج الأعضاء المريضة وبترها أحيانا أخرى وأيضا استعمال البخور والاستعانة بالأولياء الصالحين لعلاج المس، أما المستشفيات فكان عددها قليلا وقد أنشأ أول مستشفى عام 1551 ليرتفع عددها إلى أربع مستشفيات

الأوبئة

لم يقتصر انتشار الأوبئة على الجزائر فحسب بل شمل معظم الدول المطلة على البحر المتوسط وذلك لكثرة الاتصالات بين هذه الدول، تعود بدايات ظهور الطاعون عام 1541 واستمر في فترات معينة منها سنة 1541 حيث انتقل إلى الجزائر عن طريق الأسطول الذي أرسله السلطان العثماني

لمساعدة صالح رايس ثم انتشر بسرعة في مدينة الجزائر والمناطق الغربية بشكل خاص كتلمسان ومعسكر. ووصل عدد ضحاياه إلى تسعة ألاف ضحية منهم صالح رايس، وفي سنة 1602-1603 انتشر الطاعون في قسنطينة وضواحيها وعقبه قحط وجفاف استمر مدة تسع سنوات خلف أضرارا معتبرة. وأيضا طاعون 1621 الذي خلف حوالي 50 إلى 60 ألف ضحية وقد انتشر في مدينة الجزائر ووصل حتى المناطق الجنوبية. هذا وانتشر نفس الوباء في بداية القرن الثامن عشر وفي العقود الأخيرة من نفس القرن وشمل حتى تونس والمغرب منها وباء سنة 1799 الذي حال دون حصاد الحقول وجني المحاصيل الزراعية وقد وصف الشيخ بلقاسم الرحموني الحداد الوضع في قصيدة شعبية وصفت بدقة وضع السكان.

وفي عام 1805 حدثت أزمة اجتماعية حيث انتشرت المجاعة في مختلف أنحاء الجزائر خاصة المنطقة الشرقية وبقي قرابة 3 سنوات ويرجع ذلك لعامل الجراد إضافة للاضطرابات الناجمة عن ثورة ابن الأحرش مما أدى إلى ندرة الانتاج وغلاء الأسعار.

يُعد طاعون 1816- 1822 أهم وأخطر الأوبئة التي تعرضت لها الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر وقد يرجع تاريخ ظهوره إلى عام 1558، فقد قدر عدد ضحاه الطاعون في عام 1788 بـ 15793 ضحية. وكان عدد الضحايا المسلمين يصل يوميا إلى 240/200 وفاة. وقد اشتد وباء الطاعون بين سنتي 1817-1822 حيث استمر سبع سنوات وكان آخر وأخطر وباء عرفته الجزائر، يرجع سبب ظهوره إلى قدوم سفينة عثمانية كانت تقل حُجاجا مصابين بالداء، فانتشر بسرعة في مختلف أنحاء الجزائر وحتى في بلدان المغرب من طرابلس إلى طنجة، كانت نتائجه جد وخيمة على السكان ففي 1817م مات حوالي 6095 شخصاً، وارتفع العدد إلى 6844 متوفى سنة 1818م، ثم تناقص إلى2927 متوفى سنة 1819م، وفي آخر سنة له فتك بـ 2262 شخصاً. تؤكد هذه الأرقام أن الوباء مس أيضا الجنود خاصة وأنه وصل إلى البادستان والثكنات العسكرية والقصبة بحيث كان الداي علي خوجة من بين ضحاياه.

اتخذ الداي عمر باشا عدة اجراءات للتقييل من حدة المجاعة فأشرف بنفسه على توزيع القمح على الخبازين، وأمر بالإبقاء على الأسعار القديمة كما أصدر قرارا بمنع تصدير الحبوب في كل من قسنطينة ووهران بل لجأ حتى للاستيراد. وعموما فإن استمرار الوباء لمدة طويلة صاحبه في أغلب الحالات ندرة الأسعار، والغلاء، والمجاعة.

بعدها اختفى وباء الطاعون وقد يرجع ذلك لقلة الوافدين من الولايات المشرقية من جهة والحصار البحري المفروض من طرف فرنسا من جهة أخرى غير أنها أثرت بشكل كبير على النمو الديمغرافي والوضع الاقتصادي والمستوى المعيشي.

وكان وباء الطاعون يصاحبه في الغالب ضرب من الجراد والقحط مما كان يؤدي إلى انتشار المجاعة، وكانت هذه الأوبئة تنقل إلى الجزائر عن طريق الحجاج والجنود المجندين، وهذا ما يؤكده الزهار حيث قال: "عندما بلغت المراكب المهداة من إسطنبول جاء معها الوباء إلى الجزائر فاشتعلت ناره سنة 1817". وكان الوباء يتسرب إلى الجزائر في الغالب عن طريق البحر ونتيجة انفتاح البلاد المتوسطية على بعضها البعض انتقلت عدوى الأمراض من منطقة إلى أخرى، وكان أول المصابين به هم الرّيّاس وعمال الميناء، وبعد ذلك ينتشر في جميع أنحاء البلاد.

يظهر مما سبق أن الجزائر لم تكن تعرف انتشارا كبيرا للأمراض، أما الأوبئة خاصة الطاعون فقد انتشر بشكل كبير ويرجع ذلك أساسا لحركة السفن المستمرة وقد انعكس ذلك على النمو الديمغرافي بالجزائر ورغم ذلك تم الاحتراز من الأوبئة بوسائل بسيطة وخاصة.